فى عالم الأدب

أم كلثـــــوم

تأليف الأستاذة نعمات أحمد فؤاد

للأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر

الغناء روح النفس، وروح القلب، يزيل الشجو بالشدو، ويبعد الآلام بالأنغام، وإذا توائم الصوت المعبر، واللحن المصور، كان التحليق والسمو. ولعل أجل المواهب ما تعاطف «المشاركة الوجدانية» وما تؤالف النزعات الإنسانية، فالشعر، والغناء، والموسيقا، يكمل بعضها بعضاً فى موكب الفن الرفيع، فالموهوبون فى هذه الألوان يتضمون المشاعر، ويشاركون الأفئدة فى اتجاهها الوجدانى. والتعبير «فن» قبل أن يكون أداء. وقد أودع الخالق فى الحواس القدرة على التذوق؛ فالأذن موصلة النغائم فى تأثر وانعطاف وإشباع، وهى صادقة الحكم ما دامت تتفاعل معها مثيرات الوجدان، لذلك عظم شأن التذوق وارتفع قدر اللحن. أليست اللغة فى أول أمرها أصواتاً؟ أليس التعبير عن الإحساس كان مقاطع ساذجة تدل على الغرض؟

بلى، فالصوت أصل أصيل فى قوة التأثير والتأثر، و«الأوتار» الواهبة جمال الصوت ثروة إلهية أودعها المبدع الأعظم لتكون نعمة من نعمه الجليلة! وإن النعمة الممنوحة للشرق المكدود ممثلة فى صوت «أم كلثوم» الذى يسرى من النفوس أوجاعها، ويسرى فى الحنايا سريان الكهرباء؛ فيؤثر تأثير السحر.. لقد تسمعت إلى الكبد الحرى التى كانت ترسل فى التياع «يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى» وكنت فى استهلال صبوتى أجنح بخيالى الصغير إلى عالم روحى بحت، وعشت فى هذا اللحن أنهنه الأنة فى صدرى؛ فترسل الزفرة، وتريق العبرة، وأحسست فى أعماقى أن الشادية خالدة، لأن تعبيرها «فنى»، لا ترسل الكلمة مرتجلة اكتفاء بالصوت العذب، والتغريد الآسر، فكأنها تطرب ما يطرب، وتراعى مخارج الحروف الدقيقة مراعاة فيها العجب العجاب. وهذا هو الفرق بينها وبين سواها، وهو عينه ما دعا الأديبة «نعمات أحمد فؤاد» أن تعرض لحياة «أم كلثوم» فى كتاب دقيق، أنيق، شائق، رائع

لقد تميز أسلوب هذا الكتاب بالأصالة التعبيرية الفنية؛ فليس ثمت حشو، ولا إملال ولا صنعة. بل توافق، وتسارق، واتساق، فى أناقة شعرية ترف بين السطور فتلمح إلى ذوق الكاتب والكاتبة!

عرضت الأديبة حياة الفنانة المبدعة عرضاً فى صدق وإخلاص وصفاء، ولهجت بوفاء «أم كلثوم» فى غير موضع مما يدل على نقاء النفس، وطيب السريرة، وألمت إلى «تحفظها» واستحيائها وانطوائها؛ ثم انطلاقها، ومسايرتها، وانفعالها فى تحفظ وتوقر، وأناة — وقد استغرق الحديث عن هذه النواحى نصف الكتاب، ولا غرو فهو تاريخ فنى يستدعى الإفاضة، والاسترسال، والإيضاح

* * *

هذا النزوع الفنى من الأديبة دال على تأصل فى الفهم، وانفعال بالفن ومظاهره، لكنها أهدت الكتاب إلى «قيثارة الله» وهذه الإضافة لا تقع فى نفسى موقع القبول، وكان فى مقدور الكاتبة أن تهديه إلى «منحة السماء» أو «هبة الخالق» أو ما أشبه التسمية التى تؤدى القصد من دون تحرج ولبس. ولا يقال إن للفن تعبيره الذى لا يتقيد بقيود، فهو متصل بالروح المجرد، لأن الأديبة قالت فى موضع آخر معبرة عن رأى «أم كلثوم» فى حقيقة الفن «والفنان» فاهمة تعابير «الخيام» أنه: «إذا استشف فاعل الفكر ما وراء الأشياء، وشرب الخمر شاربها بعقيدة أنها تخلصه من عالم المادة وتساعده على النفاذ والمضى إلى ما وراءها؛ فهو ليس بآثم فى نظر الفن» ثم تقول فى موضع آخر ص ١٣٠: «الفنان كالصوفى لا يتحرج من الأشياء تحرجاً ظاهراً كتحرج الفقيه؛ بل الخيرية والشرية عنده تتوقف على النية» هذا كلام وقفت عنده لأنه تخريج بعد عن القصد مما يتجه إليه المذهب الصوفى فى أرق مظاهره؛ فالمتصوف يتجرد من المادة ليصل إلى الذات، وما جاء مشكلاً يرد إلى الحقائق